خصائص السرد العربي القديم:

لقد تشكل السرد العربي القديم ضمن بيئة ثقافية واجتماعية حاضنة، وفي ظل سياقات جمالية مخصوصة تتواءم والبنية العقلية العربية وسياقاتها الثقافية ،حيث تعد الشفاهية أحد أهم تجلياتها. ولقد عملت البيئة السوسيوثقافية على صبغ هذا السرد وتنظيم شؤونه ضمن نسق ثقافي واحد، فكان بذلك أقرب في طبيعته إلى الأخبار والقصص والمرويات الشعبية، وهي سرود عبر من خلالها العرب القدامى عن أحلامهم وأفكارهم وذاكرتهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم.

وتشترك النصوص السردية وهي تعيد تشكيل العوالم المتخيلة والواقعية -ضمن بناء حكائي- يروى في جملة من السمات والخصائص التي قد تتباين وتختلف من نمط سردي إلى آخر، ولعلّ أهمها:

1- الشفاهية: كرست الثقافة العربية القديمة الشفاهية في أوسع نطاقها، وأعرضت عن الكتابة، وشكل هذا النسق ركنا هاما في التداول المعرفي، وفي انتقال المرويات، بله في صياغة أبنيتها السردية كذلك، ولم يقم التدوين في حقيقته إلا بتثبيت آخر صورة بلغتها تلك المرويات الشفاهية مما احتفظت به الذاكرة العربية؛ لهذا كان " من الطبيعي أن تنتظم شؤون السرد القصصي داخل المنظومة الشفاهية، "وأن يتأثر في أبنيته وصياغاته بالموجهات التي أوجدتها الأطر الشفاهية للثقافة العربية القديمة"[16] فيتجلى ذلك في مكونات البنية السردية المكونة من راوي ومروي ومروي له، كما يتجلى ذلك في عملية الإرسال والتلقي إذ يستميز التلقي في الخطابات الشفوية بتباين المسافة بين المرسل والمتلقي، كما تتجلى خاصية الشفاهية في طابع الإسناد وهي خاصية كرستها الثقافة الدينية، والذي يقصد به توثيق ما يسرد وإضفاء صبغة المعقولية Le plausible على المادة الحكائية لما للعوالم المتخيلة والعوالم الواقعية من صلات، ومماثلة ممكنة لأحداث العالمين في المخزون الثقافي للمتلقي آنذاك، أو كما يقول إمبيرتو إيكو : " إن أي عالم حكائي لا يسعه أن يكون مستقلا استقلالا ناجزا عن العالم الواقعي"[17]

2- **التشويق في الحكي:** لا تخلو المرويات السردية القديمة من عنصر التشويق والإثارة التي تشد المتلقي إلى تتبع تفاصيل القصة، والتشويق عنصر مقصود في الحكاية، وما تواتر السرد إلا وسيلة لجذب واحتواء المتلقي، وجعله يتابع الأحداث المروية من أولها إلى آخرها.

---

[16] عبد الله إبراهيم: النثر العربي القديم، بحث في البنية السردية، ص 42.

[17] عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ج 1، 2008، ص 16.

ومن أجل مفاجئة المتلقي وكسر أفق توقعه يعمد الراوي إلى " تبئير الشيء المراد إبرازه، وجعل كل أوعية السرد والخبر تصب فيه، مع اتباع خطة مقصودة"[18] لبث مزيد من المتعة والاستئناس والاستمتاع بما يروى.

3- العجائبية والجنوح إلى الغرابة: تحيل دلالات العجيب والغريب في اللغة على معاني الدهشة والانبهار والاستغراب والحيرة والخوف والعجب، وعلى هذا فالعجيب هو" حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه"[19]، أما الغريب فهو الغامض من الكلام كما يقول ابن منظور[20]، وهو " كل أمر عجيب قليل الوقوع، مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة"[21] . والعجائبية من أقدم المظاهر السردية التي تؤثث فضاء الحكايات في التراث السردي الإنساني، إذ تكاد تتشابه أصالة القصص العجائبي في ثقافة الأمم كلها من حيث حضور الأسطورة والخرافة، بوصفهما أحد أهم تجليات العجيب والغريب في فضاء المروي الإنساني.

وفي الموروث السردي العربي القديم يتجلى الغريب والعجائبي في إزالة الألفة، أو إضفاء الغرابة أو التغريب على العالم المألوف داخل الحكاية. فالجمع بين العوالم الواقعية والمتخيلة بالارتحال والانتقال إلى عوالم بعيدة عن الواقع المعاش يكسب الأشياء من جديد إدراكا جماليا، فتغدو الحكايات فضاءً يعجب بالغرائب والأسرار والغموض والخيال. مثال ذلك حكايات مدينة إرم ذات العماد وحكايات الملك تبع، وأساطير الآلهة إساف ونائلة، وحكاية الصحابي تميم الداري والكثير من الحكايات العجيبة في ألف ليلة وليلة ألف ليلة وليلة.

4- الطلب أو مشاركة المتلقي في إنجاز الحكاية : لم يكن السرد العربي القديم وليد رغبة شخصية في سرد الحكاية فحسب، بل في أوجهه الكثيرة هو رغبة في تحقيق طلب المتلقي سواء أكان هذا المتلقي حقيقيا أم متخيلا؛ لهذا يحرص الراوي على أن يلبي الدعوة الصادرة عن المتلقي حتى يكون للحكاية

---

[18] شعيب حليفي: السرد العربي التشكل والامتداد، ص 72.

[19] غيبوب باية: الشخصية الأنتربولوجية العجائبية في رواية "مائة عام من العزلة"، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، ط 1، 2012، ص 20.

[20] ابن منظور: لسان العرب، مج 5، ص

[21] ضياء الكعبي: السرد العربي القديم، الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، ا المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1 ، 2005، ص 41.

حضورها وديمومتها، فلولا المتلقي وطلبه لما كان هناك سرد ولا تأليف[22]. ويتم التعبير عن الطلب بصيغ عديدة تختلف من كاتب لأخر ومن حكاية لأخرى بشكل صريح مباشر: كـ " حدثني عن"، أو "أخبرني" ، أو" اضرب لي مثلا" أو أذكر لي" أو احكي لنا حكاية"...إلخ أو بصورة غير مباشرة من خلال التلميح الذي يستشفه المروي له أو المتلقي قراءة في مطالع الكتب أو ضمن بنية النص وهو يتابع خيوط الحكاية "وهكذا إذن فالسرد العربي القديم خاضع لقاعدة شبه عامة، هي أنّه عادة ما يكون إجابة عن طلب؛ غالبا ما تطبعه صيغة الأمر والإلزام"[23] .

5- اللغة والأسلوب: يحفل السرد العربي القديم باللغة من خلال توظيف الشعر والأمثال والحكم والآيات القرآنية ونتف من الاسشهادات المختلفة تدعيما لمقصدية الحكاية، كما يتجلى أسلوبا في اختيار الأدوات التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة وتركيبها تركيبا لتشكيل البناء اللغوي للمروي كما هو الحال في المقامة. كمايتخذ السرد العربي نهجا تعبيريا يتمثل في بساطة الأسلوب وسهولته بما يناسب التسلسل الخطي للحكاية.

6- **التضمين والتداخل الحكائي:** تتميز النصوص السردية القديمة بخاصية التضمين الحكائي أو التداخل الحكائي، وهو خطة سردية واعية تتمثل في الترابط بين الحكاية الإطار، أو "الحكاية الأم" التي تمثل المحور العام للعملية السردية ومجموعة القصص المتضمنة والمتوالدة عنها والمتفرعة بصورة عنقودية إلى عشرات القصص الصغيرة التي تغذيها الحكاية الأم وتسهم بدورها في إسناد الحكاية الإطار، وبذلك "يكون التفرع الحكائي تحقق مصغر لصيغة الحكاية الإطار بقدر ما يكون امتدادًا لتغذيتها السردية24" كما هو الحال في كتاب كليلة ودمنة، حيث تشكل الحكاية الإطار في خطاب الفيلسوف الهندي بيدبا وحواره مع الملك دبشليم الذي تتفرع عنها مجموعة من الحكايات تضم القصص الأربعة يرويها بيدبا على الملك.

7- **هيمنة الفرد البطل :** تتميز بعض أنماط السرد العربي القديم بحضور لافت لعنصر الفرد وهيمنته على مجرى الأحداث، باعتباره العنصر المحور الذي تنسج حوله الأحداث فتصوره في صورة

---

[22] عبد الفتاح كليطو: الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1988، ص 35.

[23] فايزة لولو: خصائص السرد العربي القديم، حوليات جامعة قالمة لغات والآداب، ع 19، جوان 2017، ص 338.

[24] يوسف أحمد إسماعيل: التفريع الحكائي وأنماط التخييل في كليلة ودمنة، http://www.maaber.org/

كما هو الحال في المقامة، أو تؤسطر الفرد وتجعل منه رمزا وصورة فوق طبيعية كما هو الحال في السيرة الشعبية.